مقدمة

الثقافة... والخليج... والغزو الثقافي... موضوعات شائكة.. شائكة في الوقت نفسه..!! الكتابات فيها كثيرة ومتنوعة، بعضها يغلب عليه الحماس الذي يفقده موضوعيته، والبعض الآخر سطحي تمتلئ به أعمدة الصحف، ويطرق أسماعنا عبر الأثير، وقليلة هي الدراسات المتعمقة التي يجهد فيها أصحابها أنفسهم قراءة.. وبحثا.. واطلاعا.. وتنقيبا.

منذ نحو أربع سنوات كان الخليج على كل لسان، وفي كل أذن، وتحت كل بصر، وكان الإعلام العالمي بقضه وقضيضه هنا، على أرض الخليج، وحول تلك الأرض، آلاف المراسلين والمصورين والمعلقين والمحللين يرسلون كل يوم، بل كل ساعة ولحظة أخبار أهل الخليج من منعطفهم الخطير الذي قادهم إليه واحد يفترض أنه من بينهم.

كان صدام حسين قد أقدم على فعلته النكراء.. غزو الكويت.. فأثار فزع الجميع.. خليجيين وعربا.. ومسلمين، لخوفهم على إخوان لهم في الدين والعروبة، وقد هزتهم من الأعماق أنباء لا يكاد يصدقها عقل.. من قتل.. إلى سجن.. ومن اغتصاب.. إلى نهب.. ومن سرقة إلى تعذيب.. إلى آخر سلسلة اللاإنسانيات المفزعة المعروفة.

كما خشيت طائفة منهم أن تنساح القوات البعثية في الأراضي السعودية، وكانت نذر ذلك ظاهرة للعيان على شكل آلاف الدبابات والصواريخ التي حركها النظام البعثي المجنون بامتداد الحدود العراقيةالسعودية.

وللمملكة العربية السعودية وضع خاص في نفوس المسلمين باتساع العالم لاحتضانها ثاني القبلتين حيث المسجد الحرام في مكة المكرمة، وثاني الحرمين الشريفين، حيث مسجد الرسول ﷺ، وحيث عناية آل سعود بهما محل تقدير كل مسلم غيور. فكان صدمة للمشاعر أن يتعرض لأمن ذلك البلد معتدٍ غشيم.

كما أن هناك قوى عالمية أخرى فزعت لما جرى، ولكن لأسباب أخرى... لأسباب مادية بحتة تمثلت في الحرص على البترول، ذلك الذهب الأسود الذي يدير مصانعهم والمزارع، ويحرك جيوشهم والأساطيل، ويحيل ثلوج شتائهم دفئا، وحرارة صيفهم برداً ولطفاً، كما أنه مسؤول – وخصوصًا حين تنخفض أسعاره – عن انتعاش اقتصادهم، ورواج تجارتهم، وهو متهم بغير ذلك حين يرفع أصحابه سعره، وحين يحاولون الحصول على بعض حقوقهم.

يضاف إلى ذلك، من وجهة نظر صناع الاستراتيجية العالمية وراسمي سياستها أن بادرة ظهور قوة محلية تهدد الأصغر منها والأضعف أمر مرفوض في عصر الأمم المتحدة، والنظام الدولي الجديد الذي يحتكر القوة لنفسه ويرفض أن يشاركه فيها غيره.

ثم إن المنطقة – كلها – بما فيها من آبار النفط، وبما تطل عليه من ممرات مائية دولية، وبما تتحكم فيه من طرق للتجارة حساسة بالنسبة لكثيرين، كان هذا هو وضعها عبر قرون الزمان، وهو لا يزال كذلك حتى وقتنا الراهن، وسيظل كذلك لفترات طويلة من الزمان قادمة، ما دام هناك مناطق للمواد الخام.. في جهة، ومناطق أخرى للتصنيع، وشركات عملاقة – عبر قارية – للتجارة والاحتكار، في جهة أخرى، والثروات تصب من عرق الفقراء الكادحين في جيوب الأثرياء المتخمين!!

وأهل الخليج أنفسهم، بامتداد شطآن الخليج ومن حوله، مجتمع واحد يكاد يتماثل في كل شيء، دينهم الإسلام، جاء به خاتم المرسلين، محمد بن عبد الله ﷺ، وقد خرجت منهم ذات يوم «خير أمة أخرجت للناس» بنص القرآن العظيم.

قيمهم واحدة.. وكذا عاداتهم.. تقاليدهم عريقة.. وكذا أصولهم.. عاشوا في هذه المنطقة من العالم يتقاسمون الرزق فيها، منذ أن كان شظف العيش، وقسوة الحياة هما مظهرا الوجود فيها، وهم يعيشون فيها بعد أن أغدق عليهم ربهم رزقا وافراً جاءهم من تحت سطح الأرض.

جاءتهم النعمة من ربهم فخططوا لاستثمارها لخير مجتمعاتهم، وفي أقل من ربع قرن من الزمان تغيرت صورة الحياة على أرض الخليج الذي كان هادئا ساكنا.. فعرفت أجواؤه أزيز الطائرات العملاقة، بل وعرفت تلك الأجواء الصواريخ المرعبة المدمرة، وأحاطت بشطآنه حاملات الطائرات والغواصات والفرقاطات والمدمرات وكاسحات الألغام ..!!

وراح سكون الصحراء وهدوء خطوطها الذهبية، ربما إلى الأبد، لتحل محلها شبكات هائلة من الطرق، ربطت أطراف المنطقة بعضها ببعض، ومُدت خطوط للبرق والبريد والهاتف، جعلت الخليج في قلب العالم وعقله وسمعه وبصره، في آن واحد.

وانتشر التعليم في مدن وقرى وهجر المنطقة كلها، وشع نوره على النسبة الكبرى من أبناء الخليج، من مدارس وجامعات ومعاهد من كل شكل ولون، ولم يكتف الخليجيون بالعلم يعطونه لأبنائهم في مدارسهم وجامعاتهم، ويتعاقدون مع آلاف المعلمين والأساتذة، يحضرون إليهم من إخوان لهم في الدين والعروبة، وإنما ذهبوا يطلبونه في مظانه خارج حدودهم.. في كل بقعة من الأرض أحسُّوا بأن فيها فائدة.

ولأن خططهم التنموية كانت طموحة.. وسريعة، فإنهم لم ينتظروا حتى تتكون منهم طوائف تقوم بأعبائها الاقتصادية والاجتماعية والتربوية والثقافية، وإنما سارعوا باستيراد آلاف الآلاف من العلماء والخبراء والأطباء والصيادلة والمهندسين والعمال، بل والزراع، من كل مكان على وجه البسيطة حتى وصلوا إلى مضارب البدو ذاتها ..!!

وتغير شكل الحياة على أرض الخليج، وكان حتما أن يتغير.. بعد كل هذا.. تغيرت الأرض.. وتغير المسكن، ظهر الزرع.. وعمرت المدن، تقاربت المسافات.. وانفتح الخليجي على العالم، احتك بنوعيات من البشر ما سمع آباؤه وأجداده عنهم من قبل.. أتوا إليه على أرضه في مشروعات عملاقة، وذهب هو إليهم في بلادهم يطلب علمًا حيناً، وسياحة حينا آخر، وأمورًا غير ذلك في بعض الأحيان..

تغير الإنسان في الخليج.. لا شك..

تغيرت الثقافة إذن..

ودخلتها عناصر وافدة ما كان لأحد بها هنا من عهد..

والثقافة – في أي مجتمع – مرادفة للشخصية.. شخصية الفرد، وكذا شخصية المجتمع.. والثقافة التي نعنيها هنا هي الثقافة الشاملة، بمعناها الواسع العريض الذي يشمل كل شيء في حياة الأفراد والجماعات والمجتمعات.

فالنواحي الروحية والفكرية والعاطفية مكون أساسي فيها، والجوانب المادية لا يمكن إغفالها منها، وكلها تتكامل في بناء شخصية الإنسان، كما تتكامل في بناء شخصية المجتمع، والنتيجة المنطقية والمحصلة الأخيرة أنها تصنع الإنسان.. على الرغم من أنه هو نفسه.. صانعها ومبدعها !!

وهي ـ كما نعلم ـ مستمرة على الرغم من فناء الإنسان؛ لأن وجودها مرتبط بالجماعة، لا بفرد بعينه، ولأنها تكتسب بالتعلم والمحاكاة، ولأنها ديناميكية متحركة فإنها تنتشر بين طوائف المجتمع وجماعاته، وتلوّن سلوكياتهم والطبائع فيعرفون بها، وتكون علامات دالة عليهم، فأينما حلوا أو رحلوا رحلت معهم وحطت حيث حطوا، ولذا يميزهم الآخرون، ويتعرفون عليهم من خلالها، بل ويحكمون عليهم من سماتها المتمثلة في أقوالهم والأفعال.. في مأكل، كما في مشرب، في فنون يبدعونها، كما في إبداعات يستمتعون بها.. في كل شيء.

ولأن أهل الخليج تقع بلادهم على شاطئ الخليج فقد تأثروا بما أتاهم عبر ذلك الخليج، فلم ينغلقوا على أنفسهم، كما أنهم استفادوا في ثقافتهم من الحضارات التي توافدت عليهم عبر قرون التاريخ، وموطنهم ـ كما سبق القول ـ توسط مهاداً للحضارات القديمة أثَّرت في العالم كله، من حضارة المصريين القدماء، ربما نقلت إليهم عبر بلاد بنط قريبا من القرن الإفريقي، إلى حضارة بابل وآشور التي لا يفصلها عنهم شيء يذكر.. إلى حضارتي الصين والهند، وكان المحيط الهندي ومن ثم الخليج العربي خير موصِّل لها وناقل.

وجاء الدين الإسلامي العظيم إلى قلب الجزيرة العربية، وقد اختار الله سبحانه وتعالى بقعة مباركة فيها لتكون مهبط الرسالة، واختار محمداً ﷺ ليكون خاتم الأنبياء والمرسلين، وليعلّم من حوله من البشر رسالة السماء كي يحملوها إلى شتى بقاع المعمورة.

ومع رسالة الإسلام صُبغت الثقافة العربية بها، فدعمت القيم الطيبة فيها، ونزعت منها عناصر سيئة رديئة كانت متلازمة معها، ظهرت فيها الجوانب الروحية أوضح ما تكون، وتجلت فيها قيم ندر أن توجد في ثقافة أخرى وأن تتأصل.

منذ أكثر من ألف وأربعمائة سنة قال لهم القرآن الكريم عن الوالدين ﴿ إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أفٍّ ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريما واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل ربّ ارحمهما كما ربياني صغيرًا ﴾ فتماسكت الأسرة وارتفع قدر الوالدين – وكبار السن عامة – في مجتمع الجزيرة.. ولا يزال حتى الآن.. إلا فيما ندر، والنادر لا يقاس عليه ولا يعتبر.. وقس على ذلك أمورًا كثيرة، وقيما أخرى عديدة لا تزال شائعة ومنتشرة بين أهل الخليج.

ولكن..

ولكن التغيير بدأ يمس أهل الخليج، كما مسّ أرضهم، فمع الثراء الكبير، ومع أدوات الثقافة وناقلاتها، من راديو وتليفزيون وفيديو وغيرها، ومع ظهور البث المباشر، وكذا مع السفر إلى الخارج والاحتكاك بثقافات أخرى مختلفة ومغايرة كان حتما أن يحدث التغير، وأن تتأثر قطاعات من مجتمعات الخليج، وخصوصا من الشباب صغار السن.

كما أن الحياة المادية بدأت تطفو على السطح تؤثر في قيم البعض، وبدا وكأن الإسراف صار علامة على قطاعات لا يستهان بها من أبناء المنطقة، وكأن الاقتناء المادي ـ في ذاته ـ قد صار هدفاً يُسعى إلى تحقيقه، كما أن الانبهار بالغرب وبأستاذية الحضارة الغربية أصبح واضحا في فهم البعض وفي سلوكياتهم، مما ينذر بتبعية وشيكة لتلك الثقافة الغربية المادية التي نختلف معها في كثير.

كما بدت هناك، في بعض مناطق الخليج علامات واضحة على غزو فكري وثقافي، جاءت نتيجة لتدبير وتخطيط من جهات بعينها وضعت المنطقة وأهلها في حساباتها ومخططاتها، وبدأت تحاصرها بالإذاعة كما بالصحيفة، وبالتليفزيون.. كما بالقمر الصناعي، وبالمدرسة

الأجنبيـة.. كما بـالكنيسـة، بـالمعلم القسيس، كما بـالمنهج المنحـرف، بالنشاط المدرسي المشبوه، كما في النشاط اللاصفي الذي وصل إلى البيت فزلزله، بل وسحب بعض السـذج إلى ساحـات الكنـائس.. دون مـداراة أو مـواراة !!!

ولأن الله من ورائهم محيط.. فإن الجزيـرة التي بـزغت منهـا شمس الإسلام أنجبت طـائفة من الـرجال والشبـاب الذين أنـار الله بصائرهم والأفهـام بنور اليقين، فتنبهـوا لخطورة الغـزوة الثقافيـة الكبرى التي استهدفت الـدين، ووقفوا يحذرون قومهم منها، وبـدأوا يعلنون الحرب على ممارسات الغزاة ويكشفـونها للناس، من خلال شريط أو كتيب، من فوق منبر أو في صحيفة أو مجلة ملتـزمة، بل إن منهم من أخذه الحماس فحمل دعوة الإسـلام وراح يبشر بها هناك في دار الغرب الغـازي نفسه، حتى صرخ قـائلهم محذراً غربـه المنصّر أن يا أيها المنصرون عـودوا إلى بلادكم لتـدافعوا عنها ضد مـآذن المساجد التي بدأت تـرتفع فيها بينما أنتم توهمون أنفسكم بتنصير المسلمين (*) !

كل هذه الأمـور ـ وغيرها كثير ـ مسَّت في سطور هذا الكتاب. والهدف منهـا توضيح الـرؤيا، وبيـان الـواقع الثقافي في الخليج العـربي، ولأن الثقافة موضوع عميق فإنـه من الإنصاف أن نقول بأنه – أي هذا الكتاب – لم يشتمل على كل شيء فيـه، وإنما هو جهد فرد لـه من صفات البشر نقصهم، ولكن به على الأقل جهد باحث أراد أن يدل قومه على ثغرة في الجدار؛ عسى الله أن يقيّض لها من يسـدها، ويقف من خلفهـا مدافعا. والله نسأل أن يهدينا سواء السبيل.

وهـو نعم المولى ونعـم النصير، وهـو الهادي إلى سـواء السبيل .. سبحانه.

(*) مما يـذكر فيشكـر في هذا المجال أن نفـرا من رجـالات الخليـج، وأهـل الحصانـة فيـه حينما تنبهـوا لذلك الغزو الثقـافي المحمـوم وضعوا له من الخطط العلميـة مـا يكسر حدتـه، ومـا يوقف فعله =

= وذلك حين قرر العلماء ورجال التربية في المملكة العربية السعودية، من خلال تطبيق سياسة التعليم في المملكة، وذلك على شكل مقررات تدرس في أقسام علمية أنشئت لهذا الغرض في الجامعات السعودية، هي أقسام «الثقافة الإسلامية». وطلاب الجامعات وطالباتها يمرون جميعا من خلال مقررات تلك الأقسام فيفهمون مخاطر الغزو الثقافي ومنطلقاته، ومن ثم يتحصنون ضدها، ويمكن لمن أراد الاستفادة حول هذا الموضوع أن يعود لأدلة الجامعات - كما هو الحال في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية - فيقرأ عن مقررات متعمقة مكثفة مثل : التبشير ووسائله - الاتجاهات الفكرية المعاصرة - التنصير والاستشراق - الفكر الاستشراقي ومدارسه - مؤسسات الاستشراق وأعلامه - الفكر التنصيري ومنظماته - شبهات المستشرقين - المؤسسات الاستشراقية في الغرب والشرق - أثر الاستشراق في العالم الإسلامي - اليهودية والنصرانية المعاصرة - الكنائس النصرانية في الغرب والشرق - أثر التنصير ومواقف المسلمين منه - المستشرقون والقرآن الكريم - المستشرقون واللغة العربية - المستشرقون والأدب العربي*.

وإذا كانت هذه المقررات تدرس لآلاف الطلاب، فإن هناك أعدادًا كبيرة منهم قد تخصصت في بعضها، وخصوصًا في قسم الثقافة الإسلامية بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، كما في غيرها من الجامعات السعودية، مما أخرج أعدادًا لا بأس بها من الباحثين الجادين الذين نالوا درجاتهم العلمية في الماجستير والدكتوراه، في موضوعات مهمة تختص بالغزو الفكري والثقافي وكيفية مقاومته، ويكفي دليلا على ذلك رسالتا الماجستير اللتين استعنا بهما في نهاية هذه الدراسة، وهما يوضحان بجلاء المعنى الذي نقصد.

* دليل جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض ١٤٠٩هـ.